سعادة الشعوب التي وصل إليها الإنقاذ الإسلامي ورضاها بالتخلّي قريرة العين عن معتقداتها ولغاتها وثقافاتها وحضاراتها، وبالانصهار في بُوتقة الأمّة الإسلامية، والإسهام في بناء صرح الحضارة الإسلامية المجيد، وبذلك بلغت الحضارة الإسلامية أوج مجدها خلال ثمانين عاماً فقط. ولاتنس أن تلك الشعوب الكريمة الّتي ذابت في بوُتقة الأمّة الإسلامية هي التي رفضت بإباء وشمم المئات من السّنين بل الآلاف أن تذوب في الفاتحين.

أمّا السّرّ في نجاح المسلمين فهو أنّ الله تعالى أكرمهم بحمل الرسالة السّماويّة الخاتمة إلى الإنسانيّة فأدّوا الأمانة على خير وجه. لقد صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه فصدقهم الله تعالى وعده الحقّ في مثل قوله عزّ من قائل(١) : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً. يعبدونني لايشركون بي شيئاً. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

وماهي أهمّ نعوت المؤمنين الّذين مكّن الله تعالى لهم في الأرض؟ إنّها كما نصّ عليها السّياق، إقام الصّلاة بأركانها وواجباتها وسننها، وإيتاء الزّكاة لمستحقيها، والأمر بالمعروف شرعاً وعقلاً، والنّهي عن المنكر شرعاً وعقلا. ويقرّر السّياق أن لله تعالى عاقبة أمور الخلق ومصيرها في الثّواب عليها والعقاب في الدّار الآخرة(٢) ومادام المؤمنون مستمسكين بتعاليم دينهم شاكرين لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة عليهم فإنّ الله سبحانه وتعالى لن يغيّر عليهم نعمه. أمّا إذا بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً فإنّ الله سبحانه وتعالى يسلبهم نعمه وليس لهم من دونه عزّ وجلّ من وليّ ولا نصير. هذه هي سنّة الله تعالى الّتي لاتتبدّل والّتي

---

١) سورة النّور ٥٥

٢) انظر هنا تفسير الطّبري ١٢٦/١٧

أومأ إليها قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنفال(١) : ﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم﴾.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

وإن يكذّبوك: وإن يكذّبك يامحمّد هؤلاء المشركون بالله(٢)

وأصحاب مدين: هم قوم شعيبٍ عليه السّلام(٣) .

وكُذِّب موسى: لم يقل وقوم موسى لأنّ قوم موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابت له ولم تكذّبه، وإنّما كذّبه فرعون وقومه من القِبط(٤) .

فأمليت للكافرين: فأمهلت لأهل الكفر بالله من هذه الأمم فلم أعاجلهم بالنّقمة والعذاب(٥) .

فكيف كان نكير: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم (٦) .

في معرض تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام يخاطب ربّ العزّة والجلال حبيبه ﷺ ويقول له: وإن يكذبك يامحمّد قومك من مشركي

(١) الآية ٥٣
(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧
(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧
(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧
(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧
(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٧ والجلالين

مكّة فقد كذّب قبلهم قوم نوحٍ عليه السّلام أوّل الرّسل والأب الثّاني للبشرية، وكذّبت عادٌ قوم هودٍ عليه السّلام في جنوب الجزيرة العربية في نواحي اليمن وحضرموت والرّبع الخالي وعُمان، وكذّبت ثمود قوم صالح عليه السّلام، في شمال الجزيرة العربية في مدائن صالح والحِجْر، وكذّب قوم إبراهيم عليه السّلام بأرض العراق، وكذّب قوم لوطٍ عليه السّلام في نواحي الأردنّ جنوبيّ البحر الميّتِ، وكذّب أصحاب قرية مدين، قوم شعيب عليه السّلام، ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي الّتي بقرب معان من طريق الحِجاز(١) وكذلك كذّب فرعونُ وقومُه من القبط موسى عليه السّلام في حين آمن به عليه السّلام قومه بنو إسرائيل.

لقد أمهل الله سبحانه وتعالى أولئك المكذّبين كما أمهل كفّار مكّة ومن شاكلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، ثمّ أخذ الله تعالى أولئك الكافرين بالعذاب الشّديد فما كان لهم من دون الله تعالى من وليّ ولا نصير. فكيف كان يامحمّد ويا أيّها الإنسان إنكاري على أولئك المكذّبين ومعاقبتي لأولئك الظّالمين.

وإنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يعتبروا وأن يدركوا معنى إمهال الله تعالى لهم وإلاّ كان أخذ الله تعالى لهم شديداً.

في الصّحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ الله ليملي للظّالم حتّى إذا أخذه لم يفلته. ثمّ قرأ(٢): ﴿وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة. إنّ أخذه أليمٌ شديد﴾(٣).

وليس بخافٍ التّرابط في القرآن الكريم بين عادٍ وثمود. ومعروفٌ أنّ لوطاً عليه السّلام ابن أخي إبراهيم عليه السّلام، وأنّ موسى عليه السّلام زوج ابنة شعيبٍ عليه السّلام. وهذه أنواعٌ من الرّباط في السّياق.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣١

(٢) سورة هود ١٠٢

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٧

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

فكأيّن من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمة: وكم يامحمّد مِنْ قريةٍ أهلكت أهلها وهم ظالمون. يقول: وهم يعبدون غير من ينبغي أن يعبد، ويعصون من لاينبغي لهم أن يعصوه(١) كأيّن: اسم كناية عن العدد مبني في محلّ رفع مبتدأ(٢).

خاوية: خَوَتِ الدّار: أي باد أهلها وهي قائمةٌ بلا عامر، وخَوَتِ الدّار: تهدّمت وسقطت، ومنه قوله تعالى(٣) ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ أي خالية، وقيل: ساقطة على سقوفها(٤).

على عروشها: العرش: البيت، وجمعه عروش. وعرش البيت سقفه، وجمعه عروش. وقوله عزّ وجلّ: ﴿فكأيّن من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمةٌ فهي خاويةٌ على عروشها﴾ قال الزّجّاج: المعنى أنّها خلت وخرّت على أركانها. وقيل: صارت على سقوفها كما قال عزّ من قائل(٥): ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ أراد أنّ حيطانها قائمة وقد تهدّمت سقوفها فصارت في قرارها وانقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السّقوف المتهدّمة قبلها. ومعنى الخاوية والمنقعرة

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١١٣

(٣) سورة النّمل ٥٢

(٤) لسان العرب: «خوا»

(٥) سورة الحجر ٧٤

واحد[١] ويقول الطّبري[٢]: «﴿فهي خاوية على عروشها﴾ يقول: فباد أهلها وخلت وخوت من سكّانها فخربت وتداعت وتساقطت على عروشها، يعني على بنائها وسقوفها».

وبئرٍ معطّلة: ومن بئرٍ عطّلناها بإفناء أهلها وهلاك وارديها فاندفنت وتعطّلت فلا واردة لها ولا شاربة منها[٣].

وقصرٍ مشيد: ومن قصرٍ مشيد رفيع بالصّخور والجِصّ قد خلا من سكّانه بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء فعالهم فبادوا وبقي قصورهم المشيدةخالية منهم[٤] ويقول ابن كثير[٥]: «قال عكرمة: يعني المبيَّض بالجصّ. وروي عن عليّ بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضّحّاك نحو ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين. وكلّ هذه الأقوال متقاربة ولامنافاة بينها، فإنّه لم يحم أهله شدّة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولاحصانته من حلول بأس الله بهم كما قال تبارك وتعالى[٦]: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾» والجصّ[٧] بالمدينة يسمّى الشّيد[٨] والشّيد، بالكسر: ماطُلي به الحائط. وبناءٌ مَشيد: معمولٌ بالشّيد. وكلّ ما أُحْكِمَ من البناء فقد شُيِّد. وتشييد البناء: إحكامه ورفعه[٩].

---

(١) انظر لسان العرب: «عرش»

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٧

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٧

(٦) سورة النّساء ٧٨

(٧) بكسر الجيم وفتحها

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١٢٨

(٩) انظر لسان العرب: «شيد»

بشأن الآية الكريمة نودّ أن نقف عند القول: ﴿فهي خاويةٌ على عروشها﴾ وعند القول: ﴿وقصرٍ مشيد﴾.

وبشأن القول: ﴿فهي خاويةٌ على عروشها﴾ نتبيّن أنّ القول: ﴿فهي خاوية﴾ بمعنى فهي خاليةٌ من سكّانها، كما نتبيّن أنّ العروش بمعنى السقوف الخشبيّة في الأساس. والمعروف أن هذه هي صفة السّقوف في الجزيرة العربيّة والعالمين العربيّ والإسلاميّ حتّى عهدٍ قريب. ومن جنس هذه السّقوف العروش، وفي مقدّمتها عروش العنب، والمفرد عريش وعَرْش. والدّليل على أنّ سقوف المنازل وعروش العنب من جنسٍ واحد أنّ المفرد عرشٌ وعريش جاء في حقّ كلٍّ من سقف المنزل وعريش العنب(١) وقد أطلق اللفظ على المنزل من باب إطلاق الجزء على الكلّ، كما أفاد الخواء لازمه وهو السّقوط.

وبناءً على ماسبق يكون في القول: ﴿فهي خاوية﴾ بلاغةٌ بالحذف، وكأنّ أصل الكلام: وكم يامحمّد من قرية أهلكت أهلها وهم ظالمون فالقرية خاليةٌ ساقطٌ جدرانها على عروشها وسقوفها.

إنّ هلاك تلك القرى بفعل إهلاك الله تعالى أهلها، وقد ينال الإهلاك القرى ذاتها بفعل الحاصب أو الخسف وماإليهما، وقد لاينالها كأن يكون الإهلاك بفعل الصيحة مثلاً. وفي كلّ الأحوال تخلو القرى من أهلها وتأخذ بإذن الله تعالى عوامل التّعرية في النّيل منها. ونستطيع أن نفهم أنّ الدّمار يصل الى السقوف أو العروش أوّلاً، فتأخذ في السّقوط. وبمرور الوقت يتسرّب البلى الى الحوائط الّتي تأخذ في السقوط تباعاً، وكما تسقط الى الخارج هي تسقط الى الدّاخل، أي على السّقوف أو العروش. وتتجلّى العبرة أشدّ في هيئة الحوائط الّتي تسقط الى الدّاخل على السُقُف أو العروش بسبب دلالة السُقُف والحوائط معاً على الدّمار الأكيد الذي حلّ بالقرى وأهلها. وهكذا يتبيّن بالمقارنة بين القول: ﴿فهي خاوية على عروشها﴾ وبين أصل الكلام: فهي خاويةٌ ساقطٌ جدرانها على سقوفها، أنّ ثمّة

---

(١) انظر لسان العرب «شيد»

لفظتين اثنتين قد تمّ الاستغناء عنهما، كما يتبيّن أنّ المعنى مفهومٌ مع هذا الحذف. بل إنّ المعنى أبلغ مع الحذف منه مع الذّكر، لأنّ الحذف يحمل كلّ متدبّر للقرآن الكريم على الاجتهاد في تعيين الكلام المحذوف في الآية الكريمة الّتي يفهم كلّ متدبّرٍ لها للوهلة الأولى المعنى الّذي يرادُ التّعبير عنه وإبلاغه، فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء، الّذي لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. وهكذا نكون في الجزئية الكريمة أمام بلاغةٍ بالحذف.

وبشأن القول: ﴿وقصرٍ مشيد﴾ نستطيع أن نفهم أنّ ثمة ثلاث صفاتٍ إذا تحققت في البناء كان الغاية في الكمال والجمال، وهذه الصّفات الثّلاث هي متانة البناء وقوّته، ضخامة البناء وارتفاعه، جمال البناء وزينته، من زاوية هندسته وتجصيصه. ومن البيّن أنّ كلّ صفةٍ تفضي إلى الّتي تليها، بمعنى أنّ متانة البناء شرطٌ لضخامته وارتفاعه، وأنّ جمال الهندسة يتجلّى في أثناء التنفيذ كما أن جمال التّجصيص يتجلّى في أثناء عمليّة الزّينة الخارجية والدّاخليّة.

والحقيقة أنّا حينما نقف على بعض أنواع الأبنية قبل الإسلام، ومنها العسكريّة، نستطيع أنّ نفهم أنّ عمليّة التّشييد، بمعنى استعمال الشِّيد، بمعنى الجِصّ، لاتقتصر على الطّلاء الخارجيّ، إنّما تتجاوز ذلك وتسبق ذلك الى كونها متعلّقةً بعمليّة البناء ذاتها. وليكن حديثنا عن البناء عمليّاً وليكن المكان بيئة المدينة المنوّرة الّتي نزلت فيها السّورة الكريمة.

إنّ بيئة المدينة المنوّرة زراعيّة، أي مستقرّة متحضّرة، وبناءً على ذلك فإنّ عملية البناء أصيلة، بمعنى أنّ بيئة المدينة المنورّة توظّف إمكانات البيئة في أثناء عمليّة البناء من حَجَرٍ ومَدَرٍ (أي طين)(١) ونخيل وسعفٍ وما إلى ذلك.

ولمّا كانت بيئة المدينة المنوّرة قبل الاسلام منطقة حربٍ ضروس بين الأوس والخزرج وحلفاء الفريقين من اليهود، فقينقاع ـ مثلاً ـ حلفاء الخزرج، وقريظة ـ مثلاً ـ حلفاء الأوس، فقد كان ثمة نوعان رئيسان من المساكن

(١) المدر بحركتين: قطع الطين اليابس واحدته مَدرة بحركتين. اللسان: مدر»

والحصون المبنيّة من الحجر. وهذان النوّعان من البناء أوّلهما الآطام والمفرد الأُطُم بضمّتين، والأُطْم بضمٍّ فسكون. والجمع القليل آطام والجمع الكثير أطوم(١) وآخرهما الحُصون، والمفرد الحِصن، بكسر الحاء(٢)

وقد تبيّن من القراءة ومن المشاهدة الفعليّة أن ثمّة فروقاً بين الآطام والحصون كما أنّ بينهما اتّفاقاً. ونستطيع أن نوميء الى أوجه الاتفاق والاختلاف بين الآطام والحصون على النحو التالي:

١ـ الآطام أبنية سكنيّة أوّلاً عسكريّة آخراً، أمّا الحصون فإنّها بعكس ذلك، عسكريّة أوّلاً سكنيّة ثانياً.

٢ـ يتّخذ الحصن شكلاً مربّعاً تطلّ أروقته على فنائه أمّا الأطم فإنّه بناءٌ غير مربّع، فهو أقرب إلى المنزل الذي يفيد عسكرياً.

٣ـ حجارة الحصن كبارٌ وليس بينها جِصٌّ ولاحشو أمّا حجارة الأطم فإنّها صغارٌ وكبار وبينها جصٌّ أو حشو.

٤ـ من مقوّمات الحصن وجود بئرٍ أو نبعٍ بداخله يعين على مقاومة الحصار الطّويل حينما تكون ثمّة حروب، وليس ذلك من شروط الأطم(٣).

فإذا تأمّلنا الآية الكريمة تبيّنّا أنّها تستعمل لفظة القصر ﴿وقصرٍ مشيد﴾ وليس البرج على غرار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّساء(٤): ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ والبروج بمعنى الحصون(٥) أمّا القصور فإنّ حظّها من الجانب السّلميّ أكبر من الجانب العسكريّ. وقد جرت

---

(١) انظر اللّسان «أطم»

(٢) الصّحاح: «حصن»

(٣) انظر ـ مثلاً آثار المدينة المنوّرة للأستاذ عبدالقدوس الأنصاري ٤٢ و٥٢ و٥٣ الطبعة الثانية ١٣٧٨هـ مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة

(٤) الآية ٨

(٥) الصّحاح: «برج»

العادة بشأن القصور التي يسكنها الحكّام والموسرون أن يكون حظّها من الجمال أو الزّينة موفوراً. وكأنّ القصر يتحقّق فيه كلٌّ من المتانة والارتفاع والجمال، وكأنّ صفة القصر: «مشيد» تأخذ في الاعتبار الى حدٍّ كبير جمال القصر الّذي يساعد الشِّيد أو الجِصّ على تحقيقه، إضافةً إلى دلالة: «مشيد» على متانة البناء وبخاصّةٍ حينما يكون البناء مرتفعاً.

بناءً على ماسبق يصحّ أن يكون معنى الآية الكريمة - والله أعلم - وكم من قريةٍ أهلكت أهلها وهم ظالمون فهي خاليةٌ من أهلها ساقطةٌ جدرانها على سقوفها، وكم من بئرٍ معطّلةٍ طمست معالمها، وتعطّلت منافعها، وكم من قصرٍ متين البناء، رفيع العماد، فائق الزّينة، قد عاد خراباً وعبرةً للمعتبر.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

في أسلوب الاستفهام الإنكاري تسأل الآية الكريمة كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين الّذين لايعتبرون: أفلم يسيروا في الأرض في أثناء رحلاتهم التي تجوب الجزيرة العربيّة من أقصاها الى أقصاها في الشتاء والصّيف على وجه الخصوص فيعتبروا بما حلّ بعادٍ في جنوب الجزيرة العربيّة، وبثمود وقوم لوط وأصحاب مدين في شمال الجزيرة العربيّة، وغير هؤلاء في كل مكانٍ يمرّون به. هلاّ كانت للقوم قلوبٌ واعيةٌ يعقلون بها ويستفيدون منها ويأخذون العبرة من تلك القرى التي كانت ملء سمع الدّنيا وبصرها فكفرت بأنعم الله تعالى فأخذها الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر فغدت أثراً بعد عين. وهلاّ كانت للقوم آذانٌ واعيةٌ يسمعون بها آي الذّكر الحكيم ومواعظ المصطفى ﷺ فتمتليء نفوسهم خشية، وقلوبهم

ورعاً، وصدورهم خوفاً. إنّ العين الصّحيحة هي الّتي ترى وتنقل ماترى الى العقل أو الفكر الّذي يحوّل كلّ ذلك، إن كان نيّراً سليماً: إلى القلب الذي تستقرّ فيه العبرة، وتفيد الموعظة، وتفعل فعلها الذّكرى. وإنّ الأذن الواعية هي الّتي تسمع وتنقل بدورها ماتسمع الى العقل أو الفكر الّذي يحوّل ذلك بدوره الى القلب الشّهيد في هيئة الذّكرى النافعة.

إنّ العين إن كان فيها عمى، والأذن إن كان فيها صمم، فإنّ العقل لايصله نور الهداية ولا صوت الحق، ومن باب أولى القلب، الذي هو بمثابة المستقرّ والمستودع.

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم ليس لهم الآذان الواعية التي تجعل عقولهم تدرك فحوى ماتسمع كي تمتليء القلوب بدفء الإيمان وبرد اليقين. وهكذا يتساوى الكافرون والأنعام في عدم الفقه والعقل لأن آذان الفريقين تقف عند السّماع مجرّداً، فإذا كان الدّاعي قريباً سمع الفريقان دعاءً دون فهم. وإذا كان الدّاعي بعيداً سمع الفريقان نداءً دون وعي.

وماقيل عن آذان الكفّار يقال عن أعينهم. إنّ العين المبصرة إذا كانت لاتنتفع ممّا ترى فهي والعمياء سواء. وهذه العين الّتي ترى النور في مجال المحسوسات رمزٌ للبصيرة الّتي ترى المعنويّات . فإذا كانت العينُ المفتوحة أو النّاظرة بسبب عدم الإدراك تساوي العمياء، فإنّ البصيرة الّتي ترمز لها العين العمياء بصيرةٌ عمياء أو مظلمة. وتلك هي بصيرة كفّار مكّة العمياء ومن شاكلهم من الكافرين. إنّ أعينهم الّتي ينظرون بها ولكن لايبصرون عمياء، دليلاً على عمى بصائرهم وقلوبهم التي في صدورهم والعياذ بالله.

فإذا كانت العين التي تنظر ترى، وتلك صفة عين المؤمن، وكانت تلك العين رمزاً للبصيرة، عرفنا أنّ بصيرة المؤمن نيّرة، وأنّ قلبه الّذي في صدره المشروح لنور الاسلام، قد امتلأ بنور الإيمان حتّى فاض ذلك النّور في هيئة البصيرة التي ترى بنور الله تعالى.

إنّ الآية الكريمة تنكر على الكافرين أن يحرموا من تلك النّعوت الّتي هي من خصائص المؤمنين.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

ويستجعلك يامحمّد قومك مشركو مكّة بالعذاب الّذي وعدتهم إياه إن لم يؤمنوا. ولن يخلف الله سبحانه وتعالى وعده بأن يعذّبهم في الأولى كيوم بدر، وفي الآخرة في النّار وبئس القرار، إن لم يؤمنوا ويعملوا صالحاً. وإنّ يوماً عند ربّك أيّها الرسول الكريم والنبيّ العظيم وأيّها الإنسان، من أيّام الآخرة، كألف سنة ممّا تعدّون من أيّام الدّنيا. إنّ عذاب الكافرين في الآخرة أليمٌ وطويل، لذا ينبغي على الكافرين أن يحذروه بالإيمان وعمل الصّالحات لا أن يستعجلوا به استهزاءً وغباءً.

والآية الكريمة تذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا في سورة السّجدة(١) ﴿يدبّر الأمر من السّماء الى الأرض ثمّ يعرُج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون﴾ يقول الطّبري في تفسير الآية الكريمة(٢) : «يدبّر الأمر من السّماء الى الأرض ثمّ يعرج إليه في يومٍ كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ونزوله الى الأرض ألف سنةٍ ممّا تعدّون من أيّامكم، خمسمائة في النّزول وخمسمائة في الصعود» ويقول ابن كثير(٣) «وقال مجاهد وقتادة والضحّاك: النّزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة عام ولكنّه يقطعها في طرفة عين».

---

(١) الآية ٥

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٩

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٧

وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

وكأيّن من قرية أمليت لها: وكم يامحمّد من قرية(١) والمراد أهلها(٢) أمهلتهم وأخّرت عذابهم وهم بالله مشركون ولأمره مخالفون. وذلك ظلمهم الّذي وصفهم الله به جلّ ثناؤه(٣).

وكم من قرية أمهلتها وهي ظالمة بشركها فلم أعاجلها بذنبها ولم أعاقبها به على الفور حتّى ظنّت الإمهال إهمالاً فأخذتها أخذاً شديداً، وعاقبتها عقاباً أليماً، فباد أهلها وخوت على عروشها، واليّ مصير الخلائق يوم القيامة فأثيب المحسن بفضلي، وأعاقب المسيء بعدلي، لارادّ لقضائي، ولا معقّب لحكمي.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ

ورزقٌ كريم: ورزقٌ حسنٌ في الجنّة(٤).

معاجزين: ظانّين ومقدّرين أنّهم يعجزوننا(٥) قال قتادة: كذّبوا بآيات الله فظنّوا أنّهم يعجزون الله ولن يعجزوه(٦).

---

(١) تفسير البري ١٧/ ١٢٧

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٠

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٠

(٥) مفردات الراغب الأصفهاني: «عجز» ٣٢٢ وفي معاني القراءة ٢/ ٢٢٩ «معاندين»

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٠

تأمر الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ بأن ينادي كلّ النّاس ويقول للمؤمنين والكافرين جميعاً إنّما أنا لكم نذيرٌ بيّن الإنذار بين يدي عذابٍ شديد يوم القيامة، أمّا الحساب فعلى ربّ العباد جلّ وعلا.

وتبيّن الآية الكريمة الثانية ثواب الّذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصّالحات بجوارحهم بأنّ لهم من الله تعالى مغفرةً لذنوبهم إذا تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، ورزقاً حسناً وثواباً كريماً في الجنّة الّتي فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولاخطر على قلب بشر.

وتبيّن الآية الكريمة الثالثة عقاب الّذين سعوا في آيات الله تعالى وبذلوا منتهى طاقتهم في إطفاء نور الله تعالى كما تبيّنه آي الذكر الحكيم، وفي الصّدّ عن سبيل الله تعالى، ظانّين ومقدّرين أنّهم يعجزون الله تعالى ويفوتونه ولاينالهم عذاب الله تعالى. إنّ هؤلاء هم أصحاب الجحيم الّتي يفوق عذابها كلَّ عذاب.

(٥)

(ينسخ الله تعالى القادر على كلّ شيء مايلقى الشّيطان ويثبت آياته البيّنات ويثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين)

الآيات (٥٢ ـ ٦٦)

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ
أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ
ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ
فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

إذا تمنى: جاء في لسان العرب(١): «أبو العبّاس أحمد بن يحيى: التمنّي حديث النّفس بما يكون وبما لايكون. قال: والتّمنّي السّؤال للرّبّ في الحوائج. وفي الحديث: إذا تمنّى أحدكم فليستكثر فإنّما يسأل ربّه. وفي رواية: فليُكْثِر. قال إبن الأثير: التّمنّي تَشَهِّي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النّفس بما يكون وما لايكون. والمعنى: إذا سأل الله حوائجه وفضله فليُكثِر فإنّ فضل الله كثير وخزائنه واسعة... وتمنّى الشيء أراده، ومنّاه إيّاه وبه، وهي المِنْيَة والمُنْيَة والأُمنيّة... وفي حديث الحسن: ليس الإيمان بالتَحلّي ولا بالتّمنّي ولكن ماوقر

(١) «منى»

في القلب وصدّقته الأعمال. أي ليس هو بالقول الّذي تظهره بلسانك فقط، ولكن يجب أن تتبعه معرفة القلب» والتّمنّي حديث النفّس[1] والتّمنّي تقدير شيءٍ في النّفس وتصويره فيها. وذلك قد يكون عن تخمينٍ وظنّ، ويكون عن رويّةٍ وبناء على أصل. لكن لمّا كان أكثره من تخمين صار الكذب له أملك. فأكثر التّمنّي تصوّر مالاحقيقة له. والأمنيّة: الصّورة الحاصلة في النفس من تمنّي الشيء[2] فتأويل الكلام: ولم يُرْسَلْ يامحمّد من قبلك من رسولٍ الى أمّةٍ من الأمم ولا نبيٍّ محدَّث ليس بمرسل إلاّ إذا تمنّى[3].

فينسخ الله: النّسخ إزالة شيء بشيء يتعقّبه كنسخ الشّمس الظلَّ والظلّ الشّمس، والشّيب الشّباب[4] عن ابن عبّاس: أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشّيطان[5].

ثم يحكم الله آياته: ثم يثبت الله آياته[6] والحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعقل. فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات[7].

فتنة: اختباراً[8].

للّذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون[9].

والقاسية قلوبهم: هم المشركون[10].

---

(١) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٢٩

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «منى» ٤٧٥

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٣

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني «نسخ» ٤٩٠

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٠

(٦) الجلالين

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حكم» ١٢٧

(٨) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٤

(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٠ وتفسير الطّبري ١٧/ ١٣٤

(١٠) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٠

وإنّ الظّالمين لفي شقاق بعيد: وإنّ مشركي قومك يامحمّد لفي خلاف لله في أمره بعيدٍ من الحق[1] وفي ضلالٍ ومخالفةٍ وعنادٍ بعيد من الحق والصّواب[2].

فتخبت له قلوبهم: فتخضع للقرآن قلوبهم وتذعن بالتّصديق به والإقرار بما فيه[3] وتذلّ[4] وتطمئنّ[5].

في مريةٍ منه: في شكّ[6] من هذا القرآن[7].

عذاب يوم عقيم: قال عكرمة ومجاهد في روايةٍ عنهما هو يوم القيامة لا ليل له. وكذا قال الضحّاك والحسن البصري. وهذا القول هو الصّحيح[8] ويومٌ عقيم لافرح فيه[9].

وما أرسلنا من قبلك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من رسولٍ إلى أمّة من الأمم ولانبيٍ محدّث ليس بمرسل، إلاّ إذا تمنّى النّصر العاجل للمؤمنين، والفتح المبين على الكافرين، والتمكين السريع لدين ربّ العالمين، ألقى الشّيطان الرجيم في أمنيّة ذلك الرسول أو النبي ﷺ ماليس منها بل مايضادّها. والقصد اللّئيم للشّيطان الرّجيم عليه لعنات ربّ العالمين المتتابعة إلى يوم الدين، أن يستيئس الرّسل والنّبيّون من رحمة ربّ العالمين، وأن يستيقنوا بأنّ أقوامهم قد كذّبوهم وأعرضوا عنهم وصدّوا الآخرين عن سواء السّبيل، وأن يُثَبِّط اللّعين عزائم المؤمنين، ويمزّق صفوفهم، ويشتّت جمعهم، ويفرّق كلمتهم.

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٤

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٠

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٤

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٠

(٥) الجلالين

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٥

(٧) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣١ وتفسير الطّبري ١٧/ ١٣٥ والجلالين

(٨) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣١

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عقم» ٣٤٢

وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول: وأنت يامحمّد لست بِدْعاً من المرسلين والنّبيّين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

وكما نصر الله تعالى المرسلين والنّبيّين السّابقين وأخزى الشّيطان الرّجيم بأن أبطل الله تعالى ما ألقى الشّيطان الرّجيم وأفسده، وأحكم الله تعالى آياته البيّنات الّتي خصّ بها أولئك المرسلين والنّبيّين وثبّتها وقوّاها، ممّا كان له الأثر الحسن على المرسلين والنبيّين والمؤمنين، فإنّ الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم سوف يكرم المصطفى ﷺ والمؤمنين بالنصر المبين، والتمكين للدّين. إنّ ذلك هو الّذي تحقّق للمصطفى ﷺ ويتحقّق للمؤمنين من صحابةٍ وتابعين وتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، ولله الحمد والمنّة.

إنّ الله سبحانه وتعالى ينسخ مايلقى الشّيطان الرّجيم من أكاذيب ويبطلها، ويثبّت آياته البيّنات ويقوّيها، ليجعل عزّ وجلّ مايُلْقى الشّيطان الرّجيم فتنةً وابتلاءً للّذين في قلوبهم مرض النفاق، والقاسية قلوبهم من المشركين. وإنّ الظّالمي أنفسهم بالكفر لفي ضلال عن الحقّ بعيد، وعناد بالباطل أكيد. وكذلك ليعلم المؤمنون الّذي آتاهم الله تعالى علماً لدنّياً وهبيّاً بأنّ القرآن الكريم هو الحقّ الموحى به من ربّك يامحمّد، فيؤمنوا بالقرآن الكريم، وتطمئنّ له قلوبهم وتخضعَ وتخشع. وإن الله تعالى لهادي الّذين آمنوا الى صراطٍ مستقيمٍ موصلٍ الى جنّات النعيم.

وفي المقابل لايزال الّذين كفروا في شكٍّ من القرآن الكريم حتّى تأتيهم السّاعة فجأة بظهور علاماتها، أو يأتيهم فعلاً عذاب يوم القيامة العقيم من كلّ فرحٍ فيه وفرج.

ومن البيّن أنّ الآيات الكريمة المترابطة تتحدّث عن كلّ المرسلين والنبيّين السابقين. إنّ هذه هي قصّة الصّراع الأزليّ بين الحقّ والباطل. وإنّ محمدّ بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه يصحّ في حقّه عليه الصّلاة والسّلام ماصحّ في حقّ المرسلين والنبيّين

السّابقين. إنّ المصطفى ﷺ يتمنّى الخير الكثير، وإنّ الشّيطان الرّجيم هو دائماً وأبداً العدوّ المبين الحريص على صرف الشّرّ الى المؤمنين والخير عنهم فكيف بخاتم النّبيّين وأشرف المرسلين. وإنّ ربّ العالمين يبطل كيد الشيطان الرجيم ويقوّي الآيات البيّنات التي خصّ بها المصطفى الأمين. وهكذا ينصر الله تعالى المؤمنين، ويدحر الكافرين، ولايهدي كيد الخائنين، ويخزي الشيّطان الرّجيم.

تعقيب

هذه المجموعة من الآيات الكريمات بعامّة، الأولى منها بخاصّة: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولانبيّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشّيطان في أمنيّته﴾ الآية، ذهب فريقٌ من العلماء في سبب نزولها الى أنّ لها علاقة بما زعم الزّاعمون بأنّ المصطفى ﷺ قبل الهجرة حينما قرأ سورة النجم وتلا قول الحقّ جلّ وعلا(١): ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى. ومناة الثالثة الأخرى﴾ استطاع الشّيطان الرّجيم أن يجري على لسان المصطفى ﷺ كلاماً يفيد بأنّ شفاعة الأصنام تُرْتَجى.

وسبق لنا قبل مايزيد على العشرين عاماً أن قمنا بدراسةٍ عنوانها: رأيٌ في قصّة الغرانيق، تمّ الانتهاء منها بفضل الله تعالى يوم الجمعة ١٢/٧/١٣٩٦هـ الموافق ٩/٧/١٩٧٦م وطبعت ملحقةً بكتابي: تأمّلات في سورة الحاقّة، الّذي كتبت مقدّمته يوم الأحد ٢٠/٦/١٣٩٧هـ الموافق ٨/٥/١٩٧٧م وطبع في القاهرة للمرّة الأولى سنة ١٩٧٧م. لقد قمت بهذه الدّراسة حينما كنت آنذاك أستاذاً زائراً في قسم الدّراسات السّاميّة بجامعة سدني بأستراليا، وبعد أن اشتركت ببحثٍ عنوانه نظم القرآن الكريم ألقيته بالإنجليزية في المؤتمر الثقافيّ الّذي عقدته جامعة جلبرن للدّراسات العليا التّربويّة بمدينة جلبرن في شهر ذي الحجّة عام ١٣٩٥هـ ديسمبر عام ١٩٧٥م. لقد أُلْقى في المؤتمر واحدٌ من المستشرقين بحثاً بالإنجليزية في قصّة الغرانيق من زاوية الإثبات لها جرياً على عادة المستشرقين.

---

(١) سورة النجم ١٩ و ٢٠

وبعد انتهاء المؤتمر عكفت على هذا الموضوع وقمت بالدّراسة المذكورة التي أَطْلَعْتُ عليها ذلك المستشرق كما أطلعت عليها رئيس المؤتمر الأستاذ الدكتور محمّد علي العريان. وقد علمت من رئيس المؤتمر أنّ ذلك المستشرق بعد اطّلاعه على الدّراسة عدل عن رأيه السّابق. وهذه الدّراسة مطبوعة في كتاب تأمّلات في سورة الحاقّة من الصّفحات ١٣٩ ـ ١٤٨ ومع فَقْر قارّة أستراليا في المصادر العربية والإسلامية، ومع كون الفرصة قد أتيحت لي بعد ذلك بأن أقرأ الكثير في هذا الموضوع قبل طبع البحث وبعد الطبع طوال هذه السّنوات فإنّي ما ازددت إلاّ يقيناً بالنتّائج التي انْتَهَت اليها تلك الدراسة، وهي أنّ قصّة الغرانيق تستند الى حديثٍ واهي السّند، فهو لم يأت بسندٍ صحيحٍ قطّ، وإلى حديثٍ واهي المتن، لأنّه يصطدم بعصمة المصطفى ﷺ. ويكفي أن يقال في دحض هذه الفرية إنّ سورة النّجم الّتي يزعم الزّاعمون أنّ الشيطان الرّجيم ألقى الزّيادة فيها قد جاء في الآية الكريمة الثالثة منها قول الحقّ جلّ وعلا عن المصطفى ﷺ: ﴿وماينطق عن الهوى﴾ وأيّ هوًى وراء هذه الزيادة.

وإذا كان الزّاعمون يزعمون أنّ هذه القصة رواها محمّد بن إسحاق شيخ رجال السّيرة النّبوية، فإنّ هذه مناسبةٌ طيّبةٌ مباركةٌ كي أنقل في دحض هذا الزّعم أهمَّ نصٍّ مَرَّبى في إنصاف محمدّ بن إسحاق شيخ رجال السيرة النبوية، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة. وهذا النصّ في البحر المحيط لأبي حيّان. يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1]: «وهي قصّة سئل عنها الإمام محمّد بن اسحاق جامع السيرة النّبويّة فقال: هذا من وضع الزّنادقة: وصنّف في ذلك كتاباً!».

ولعلّك أدركت الحكمة من كوني في تفسير الآيات الكريمات السّابقة قد ضربت بالقصّة الّتي وضعها الزّنادقة عُرْض الحائط. لأنّ فرية الغرانيق تستند الى حديثٍ واهي السّند والمتن معاً. والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨١

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

الملك يوم القيامة والسّلطان المُطلق يوم تقوم الساعة لله تعالى الواحد القهّار. جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة غافر(١) : ﴿لِمَنِ المُلك اليوم. لله الواحد القهّار. اليوم تُجْزَى كلُّ نفسٍ بما كسبت لاظلمَ اليوم. إنّ الله سريع الحساب﴾ وفي يوم القيامة يحكم الله تعالى بين المؤمنين والكافرين فيثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين. فالّذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصّالحات بجوارحهم في جنّات النّعيم المقيم. والّذين كفروا وكذّبوا بآيات الله تعالى وعملوا السّيئات وصدّوا عن سبيل الله تعالى فأولئك لهم في جهنّم عذابٌ مهين.

(١) الآية ١٦ و١٧

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

رزقاً حسناً: ثواباً جزيلا(١).

مُدْخلاً يرضونه: ذلك المدخل هو الجنّة(٢)

والّذين هاجروا في سبيل الله تعالى وتركوا أوطانهم وأموالهم وربّما أهلهم، وجاهدوا في سبيل الله تعالى ثم قتلوا مجاهدين في سبيل الله تعالى أو حتف أنوفهم ليرزقنّهم الله تعالى رزقاً حسناً وثواباً جزيلاً. وإنّ الله سبحانه وتعالى لهو خير الرّازقين. ليدخلنّهم الله تعالى مدخلاً يرضونه هو الجنّة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وإنّ الله سبحانه وتعالى لعليم بنوايا كلّ إنسان وحقيقة الباعث له على العمل مجازٍ على ذلك، حليمٌ يمهل من قصّر في جنبه عزّ وجلّ فلعلّه يعود إلى سواء السبيل.

والآية الكريمة التي تتحدّث في الرّزق الحسن للمهاجرين في سبيل الله تعالى ثم قتلوا أو ماتوا تبيّن استواء أمر الميّت في سبيله جلّ وعلا والمقتول في الثّواب عنده(٣) وهي تذكّر بقول الحقّ جلّ وعلا في سورة آل عمران(٤): ﴿ولاتحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون﴾ ويقول

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٦ (٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٦

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٦ (٤) الآية ١٦٩

الحقّ جلّ وعلا في سورة النّساء[1] : ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد من الأرض مراغَماً كثيراً وسَعَة. ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

الشأن ذلك الذي بيّنته لكم من ثواب المؤمنين وبخاصّة المهاجرون في سبيل الله تعالى ثمّ قتلوا أو ماتوا ومن عقاب الكافرين. ومن عاقب من المؤمنين الكافرين بمثل ما عاقبوه به بسبب إيمانه ثمّ بُغي عليه من قِبل الكافرين لينصرنّه الله تعالى على أولئك الكافرين ولو بعد حين. إنّ الله سبحانه وتعالى لعفوّ يصفح عن الذّنب ويترك العقاب، غفورٌ يستر الّذنب ويظهر الإحسان بدله.

ويلاحظ بشأن القول: ﴿بمثل ماعوقب به﴾ والمعنى بمثل الأذى الّذي ناله ابتداءً والسّيئة الّتي ابتدأه الكافرون بها، يلاحظ أنّ الأذى أو السّيّئة التي نالت المؤمن تسمّى عقوبة مع أنّ المؤمن لم يقع منه سوى الإحسان. ويصحّ أن يقال إنّنا هنا أمام مايسمّى بالمزاوجة أو المشاكلة ومراعاة النظير وهو القول: ﴿ومن عاقب بمثل ماعوقب به﴾ ويصحّ أن يقال أيضاً إن الإحسان الذي يأتي به المؤمن يستحقّ عليه في نظر الكافر أن يعاقب عقاباً أليماً. وبذلك يكون من المؤمن إحسانٌ يستحقّ أن يثاب عليه، ولكنّ الكافرين يعاقبونه عليه، فيضطرّ المؤمن لأن يعامل الكافرين بالمثل فيكون من الكافرين البغي عليه. وهكذا لايعرف الكافرون شيئاً من العدل ولا الإنصاف في التّعامل مع المؤمنين. وإنّما يتبيّن العدل

---

(١) الآية ١٠٠

والإنصاف مع المؤمن الّـذي يعاقب الكافرين بمثل ذنبـهم معه الّذي بدأوه والّذي أومىء اليه بأنّه في نظرهم عقوبة يستحقّها المؤمن لمجرّد إيمانه.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

الشّأن ذلك الّذي بيّنته لكم من نصري للمؤمنين الـمهاجرين المجاهدين في سـبيلي بسـبب أن الله سـبحـانه وتعالى القـادر على كل شيء، ومن ذلك نصـر المؤمنين، بسبب أنّ الله سبحانه وتعالى يدخـل اللّيل في النّهار فيطول النّهار صيفاً على حساب اللّيل، ويدخل النّهار في الليل فيطول اللّيل شتاءً على حساب النّهار، وبسبب أنّ الله سـبحانـه وتعالى سمـيعٌ لكل صوت، بصيـرٌ بكل شيء. ويلاحظ مجيء الصّفـة «سميع» متقدمـةً تمشّياً مع لفظة «اللّيل» التي جاءت متـقدمة، وفي اللّيل تعمل حاسّـة السّمع. كما يلاحظ مـجيء الصّفة: «بصير» مـتأخّرة مع لفظة «النّهار» التي جاءت متأخرة، وفي النّهار تعمل حاسّة الإبصار.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

الشّأن ذلك الّذي بيّنته لكم دليلاً على قدرتي بإدخال اللّيل في النّهار وإدخال النّهار في اللّيل، ولا يقدر على ذلك أحدٌ سواي، بسبب أنّ الله تعالى هو الحق المطلق المستحق للعبادة وحده دون سواه لأنّه القادر على كل شيء ولايعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء. وبسبب أنّ مايعبد المشركون من أصنامٍ وأوثانٍ وما إلى ذلك هو الباطل العاجز الّذي لايملك لنفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولاحياةً ولانشوراً. وبسبب أنّ الله سبحانه وتعالى هو العليّ الأعلى من كلّ حيّ وشيء، الكبير العظيم الأكبر والأعظم من كلّ حيّ وشيء.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

إنّ الله لطيف: يُعبَّر باللّطافة واللّطف عن الحركة الخفيفة وعن تعاطي الأمور الدّقيقة. وقد يعبَّر باللّطائف عمّا لا الحاسّة تدركه. ويصحّ أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم(١).

ألم تر أيّها الرسول الكريم والنبيّ العظيم أن الله سبحانه وتعالى أنزل من

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «لطف» ٤٥٠.

السّماء ماءً فتصبح الأرض التي كانت ميتاً مخضرَّةً بالنّبات الذي يملأ العين رواءً والنفس بهجة والصّدر انشراحاً، والّذي يأكل من ثمره ومنه الناسُ والأنعام. إنّ الله تعالى اللّطيف لما يشاء تتجلّى قدرته في أمثال هذه الأمور الدّقيقة كما تتجلّى في الأمور الجليلة.

ولله تعالى مافي السماوات ومافي الأرض مِلكاً وخلقاً وعبيداً، وإنّ الله تعالى لهو الغني عن كلّ ماخلق المحمود على كلّ حال من أوليائه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

ويمسك السّماء أن تقع: ويمسك السّماء ألاّ تقع(١) ويمسك السّماء من أن تقع أو لئلاّ تقع(٢) ويجوز نصب المصدر المؤوّل على البدليّة من السّماء، بدل اشتمال. أي يمسك وقوع السّماء أي يمنع وقوعها(٣).

ألم تر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، ألم تر أيّها الإنسان أن الله سبحانه وتعالى سخّر لكم مافي الأرض من حيوان ونبات وجماد، وسخّر لكم السّفن تجري في البحر بأمره عزّ وجلّ لتبتغوا من فضل الله تعالى. والله جلّ وعلا يمسك السّماء ويمنعها أن تقع على الأرض إلا بإذنه عزّ وجل عند قيام السّاعة حينما ينفرط عقد هذا الكون. إنّ الله سبحانه وتعالى بالنّاس لرؤوفٌ شديد الرّأفة بهم، رحيمٌ شديد الرّحمة بهم.

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٨

(٢) انظر الجلالين

(٣) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٢٩ هامش رقم ١

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

إن الله سبحانه وتعالى الرّؤوف الرّحيم بالنّاس هو الّذي أحيانا أوّل مرّة بأن خلق أبانا آدم عليه السّلام من طين، وأمّنا حوّاء عليها السّلام منه عليه السّلام. وخلق جلّ وعلا منهما رجالاً كثيراً ونساءً. والله تعالى هو الّذي سوف يميتنا أجمعين، فكلّ نفسٍ ذائقة الموت. واللّه تعالى هو الّذي سوف يحيينا يوم القيامة للحساب والجزاء. الثّواب في حقّ المؤمنين، العقاب في حقّ الكافرين. وعلى الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات، والحجج المعنويّة والماديّة الباهرات، فإنّ جنس الإنسان لكفور باليوم الآخر جملةً وتفصيلا.

(٦)

(الأمر بالدّعوة الى الله تعالى، وإنذار المعرضين عن القرآن الكريم عذاب النّار، وتقرير عجز الآلهة، وحثّ المسلمين على إخلاص العبادة لله تعالى).

الآيات (٦٧ ـ ٧٨)

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

لكلّ أمّة جعلنا منسكاً: لكلّ جماعة قومٍ هي خلت من قبلك جعلنا مألفاً يألفونه ومكاناً يعتادونه لعبادتي فيه وقضاء فرائضي وعملاً يلزمونه. وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرّجل ويألفه لخيرٍ أو شرّ. يقال إنّ لفلان منسكاً يعتاده يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شرّ(١).

هم ناسكوه: أي فاعلوه(٢) وعاملون به(٣) قال مجاهد: إهراق دماء الهدي(٤).

فلاينازعنّك في الأمر: فلا ينازعنّك هؤلاء المشركون بالله يامحمّد في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتأكلون ماقتلتم ولاتأكلون الميتة التي قتلها الله فإنّك أولى بالحقّ منهم لأنّك محقّ وهم مبطلون(٥).

إنّك لعلى هدًى مستقيم: لعلى طريقٍ مستقيم(٦) واضح(٧).

الحديث عن المنسك يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الرابعة والثلاثين من هذه السورة الكريمة: ﴿ولكلّ أمّة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام﴾ الآية. وسبق أن أومأنا الى تطوّر الدّلالة والتّحوّل من

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٤

(٣) الجلالين

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٨

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٣٩

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٩

(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٤

المحسوس إلى المعنوي. إنّ المنسك ذو علاقةٍ بالنّسيكة أي الذّبيحة التي تذبح لله تعالى في المكان الذي أحلّ الله تعالى ذبحها فيه، ثمّ أفادت المناسك جميع أعمال الحجّ بما في ذلك ذبح النّسيكة، ثم أفادت اللفظة مطلق العبادة.

في ضوء ذلك يصحّ أن يكون المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ لكلّ أمّة من الأمم السّابقة جعلنا مكاناً هم قاصدوه لعبادة الله تعالى وحده لاشريك له، وهم مؤدّون فيه الشّعائر، ومنها ذبح النّسيكة ونحر الذّبيحة في ذلك المكان الّذي يحجّون إليه، والذي جعله الله تعالى مكاناً يحلّ فيه ذبح الهدايا والضّحايا والأكل منها. فلاينازعنّك المشركون يامحمد في أمر العبادة عموماً ووجوب توحيد الله تعالى في أمر ذبح النّسيكة خصوصا، حينما يجادلك أولئك المشركون بإيحاء من الشّيطان الرّجيم في شأن الميتة منكرين عليك وعلى أمّة الاسلام أكل ماقتلتم من الأنعام والامتناع عن أكل الميتة وهي التي قتلها الله تعالى!

أُدع يامحمّد إلى دين ربّك فإنّك على طريقٍ واضحٍ مستقيم مفضٍ الى الجنّة بإذن ربّك العزيز الكريم.

وإن جادلك قومك يامحمّد في توحيد الله تعالى عموماً، مناسك الحجّ خصوصاً، ومنها ذبح النّسيكة فقل لهم يامحمد: الله أعلم بما تعملون ومانعمل. الله يحكم بيننا يوم القيامة فيما كنّا نختلف فيه في الحياة الدّنيا من أمر الدّين وسيتبين الّذي هو على الهدى أو في ضلالٍ مبين.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

إنّ ذلك في كتاب. هو اللّوح المحفوظ (١)

ألم تعلم يامحمّد ويا أيّها الإنسان أنّ الله تعالى يعلم مافي السّماء والأرض، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيء في الأرض ولا في السّماء. إنّ ذلك كلّه مدوّنٌ في كتابٍ هو اللّوح المحفوظ. إنّ ذلك الإحصاء لكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ يسيرٌ على الله تعالى القادر على كلّ شيء.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

وعلى الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات والأدلّة الواضحات يصرّ المشركون على عبادة الأصنام من دون الله تعالى والآلهة المزعومة التي لم ينزل الله تعالى بعبادتها إذناً ولاسلطاناً في أيّ كتابٍ من كتبه السّماوية الموحى بها، كما يصرّون على عبادة الأوثان التي ليس عندهم علمٌ صحيح يأمر بعبادتها ويأذن.

وليس لهؤلاء المشركين الظّالمين بصرف العبادة عمّن يستحقّها إلى من لايستحقّها من نصيرٍ يدفع عنهم يوم القيامة عذاب الله تعالى أو يصرفه.

---

(١) الجلالين وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٤ وتفسير الطّبري ٧/ ١٣٩

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يكادون يسطون: يكادون يبطشون(١) .

أفأنبّئكم بشرٍّ من ذلكم: أفأنبّئكم أيّها المشركون بأكره إليكم من هؤلاء الّذين تكرهون قراءتهم القرآن عليكم(٢) .

النّار: هي النّار(٣) .

وإذا تُتْلى على المشركين آيات الله تعالى البيّنات تعرف أيّها المؤمن وأيّها الإنسان في وجوه الّذين كفروا الإنكار الأكيد والسّواد الشّديد ثمرةً نكدةً لبغض نفوسهم سماع القرآن الكريم يتلوه أهله على مسامعهم، وعاقبةً وخيمةً لانصراف قلوبهم عن الكتاب العزيز وقد زادها الله تعالى انصرافاً وعمى.

ويكاد المشركون المبغضون لسماع القرآن الكريم يبطشون بالّذين يتلون عليهم آيات الله تعالى ويفتكون بهم لو استطاعوا الى ذلك سبيلاً. والله سبحانه وتعالى يقول(٤) : ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

قل يامحمّد لأولئك المشركين وقل لهم أيّها المؤمن: أفأنقل اليكم الخبر الجديد المهمّ الّذي يزيدكم غمّاً الى غمّكم والّذي هو أشدّ إيلاماً لنفوسكم وأسوأ

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٠ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣٠

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٠

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٠ وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٣٤

(٤) سورة النّساء ١٤١

أثراً على وجوهكم لأنّه شرٌّ من اضطراركم لسماع آيات الكتاب العزيز اضطراراً؟ إنّ هذا النّبأ العظيم هو النّار الّتي سوف تدخلونها يوم القيامة، والّتي وعدها الله تعالى الّذين كفروا من أمثالكم. وبئس النّار مصيراً وعاقبة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

يأيّها النـاس ضُرب مثل: يقـول تعالى ذكـره: يأيّها النّاس جُـعلَ لله مَثَلٌ وذُكِر. ومـعنى ضُرب فـي هذا الموضع جُـعِلَ. مِنْ قولهم ضـرب السّلطان على النّاس البعث بمعنى جعل عليهم(١) والضّرب. إيقاع شيء على شيءٍ(٢) وضرب الدّراهم اعتباراً بضـرب المطرقة. وقيل له الطّبع اعتباراً بتـأثير السّكّة فيه، وبذلك شُبّـه السَّجـيّة. وقـيل لها الضّـريبة والطّبـيعـة(٣) وضرب المثل هـو من ضرب الدّراهم، وهو ذكر شيءٍ أثره يظهر في غيره(٤) والمِـثْل: الشّبه. يقال: مِثْل ومَثَل وشِبْـه وشَبَه بمعنى واحـد (٥) والمَثَل: الشّيء الّذي يُضْـرَب لشيءٍ مثلاً فيـجعل مثلَه(٦) والمَـثَل بمعنى الصّـفة(٧) وبمعنى الآية والعـبرة(٨) ويقال: تمـثّل فلانٌ

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤١

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ضرب» ٢٩٤

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني: «ضرب» ٢٩٥

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني: «ضرب» ٢٩٥

(٥) لسان العرب: «مثل»

(٦) لسان العرب: «مثل»

(٧) أنظر لسان العرب: «مثل»

(٨) انظر لسان العرب: «مثل»

ضَرَب مثلاً: وتمثّل بالشّيء ضربه مثلاً. وفي التّنزيل العزيز: ﴿يا أيّها النّاس ضُرِب مثلٌ فاستمعوا له﴾ (١) والظّاهر أنّ ضارب المثل هو الله تعالى. ضرب مثلاً لما يعبد من دونه أي بيّن شبهاً لكم ولمعبودكم (٢) فإن قلت: الّذي جاء به ليس بمثل فكيف سمّاه مثلاً. قلت قد سمّيت الصّفة أو القصّة الرّائعة المتلقّاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيّرة، لكونها مستحسنةً مستغربةً عندهم (٣).

فاستمعوا له: الاستماع: الإصغاء (٤).

إن الّذين تدعون من دون الله: إنّ جميع ماتعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام لو جمعت (٥).

ذباباً: الذّباب اسم جنس واحده ذبابة يقع على المذكّر والمؤنّث (٦) والذّباب يقع على المعروف من الحشرات الطّائرة وعلى النّحل والزّنابير ونحوهما (٧).

لايستنقذوه منه: لايستردّوه منه (٨) ولايخلّصوا المسلوب منه (٩).

ضعف الطّالب والمطلوب: الطّالب الآلهة والمطلوب الذّباب. وفيه معنى المَثَل(١٠) قال ابن عبّاس: الطّالب الصّنم والمطلوب الذّباب(١١).

---

(١) لسان العرب: «مثل»

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٩٠

(٣) الكشّاف ٢/ ٣٥٥

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سمع» ٢٤٣

(٥) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤١

(٦) الجلالين

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ذب» ١٧٧

(٨) الجلالين

(٩) انظر لسان العرب: «مثل»

(١٠) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣٠

(١١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٥ وانظر تفسير الطّبري ١٧/ ١٤١

تنادي الآية الكريمة وتخاطب كلّ النّاس المشركين مع الله تعالى غيره في العبادة والّذين يظنّون أنّ الآلهة المزعومة يمكن أن تنفعهم أو تضرّهم، كما تبيّن لهم هوان تلك الأصنام والأوثان على الحقيقة. وتظهر الآية الكريمة تبيينها حقيقة هوان الآلهة بأنّ القول لوضوح معناه، ومتانة مبناه، وخفّته على الألسنة وسيرورته، بمثابة المثل المضروب الّذي تستحضره الأذهان، ويدور على كلّ لسان، لقدرته على تقديم المعاني الكثيرة، في الألفاظ القليلة، بسبب الشّحنة الضخمة من الملابسات، الّتي يختزنها المثل بطبعه. وإنّ ضرب الآية الكريمة المثل بالمعنى الّذي تبيّن يأتي بعد حديث السّياق عن الكثير من المظاهر المطلقة لكلٍّ من قدرة الله تعالى العزيز الحكيم وعلمه، فهو جلّ وعلا المستحقّ للعبادة وحده لاشريك له. وحينما يكون ربّ العزّة والجلال هو القدير العليم المستحقّ للعبادة تكون الآلهة المزعومة في أحطّ دركات العجز والجهل. وإنّ الآية الكريمة تعمّق عجز الآلهة المزعومة.

إنّ الآية الكريمة تقول للمشركين في كلّ زمان ومكان: أيّها المشركون، إنّ الّذين تعبدون من دون الله تعالى من الأصنام والأوثان والآلهة المزعومة لن يخلقوا، مطلقاً، ذباباً ولو اجتمعوا له، رغم قذارة الذّباب وهوانه في نفوسكم، ولو كان بعضُ الآلهة المزعومة لبعضٍ ظهيراً ومعيناً.

ثمّ إنّ عجز الآلهة المزعومة عن خلقها مجتمعةً ذبابةً واحدةً ليس هو وحده مظهر عجز الآلهة المزعومة من زاوية الإيجابيّة، بل إنّ هذا العجز ليتأكدّ من زاوية السّلبيّة، حينما تعجز تلك الآلهة المزعومة عن استنقاذ مايسلبها الذّباب واسترداده وتخليصه منه، إن كانت تلك الآلهة المزعومة ممّن يصحّ منه محاولة استرداد ما أُخذ منه، وإلاّ فإنّ الآلهة عموماً، مايعقل منها وما لايعقل، أعجز من أن تحمي نفسها من سلب الذّباب مايريد سلبها إيّاه بإذن الله تعالى.

إنّ الآلهة المزعومة تطلب استعادة ماسلبها الذّباب إيّاه، بعد أن عجزت عن حماية نفسها من الذّباب. فما أضعف الآلهة المزعومة الّتي يظنّ المشركون أنّها

تملك لهم شيئاً وهي لاتملك لنفسها شيئاً.

وإنّ الذّباب الّذي حمته مقاذره أن يُنَالَ منه إلاّ بوسيلةٍ تمنع أذاه بإذن الله تعالى، والّذي تعافه النّفس وتحتقره وتستقذره، والّذي يستطيع الواحد منّا أن يتخلّص - أحياناً - من الكثير منه في مناسبةٍ واحدة، فما أشدّ ضعفه، هو الّذي تطلب الآلهة المزعومة استرداد ماسلبها إيّاه فتعجز، وهو الّذي يسلّطه الله تعالى على تلك الآلهة المزعومة فتعجز عن حماية أنفسها منه: ﴿وإن يسلبهم الذّباب شيئاً لايستنقذوه منه. ضعف الطّالب والمطلوب﴾.

والحقيقة أنّ العلم الحديث لينبّه الى بعض المعاني الجديدة للآية الكريمة. وإليك شيئاً ممّا جاء في هذا المعنى، تأكيداً للإعجاز العلميّ للقرآن الكريم، ولإعجاز الآية الكريمة من هذه الزّاوية. جاء تعليقاً على الآية الكريمة في كتاب: القرآن محاولة لفهم عصريّ[1] : «وهو مَثَلٌ مازال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطوّر العلم والتّكنولوجيا.

فمن يستطيع أن يخلق ذبابةً على هوانها وتفاهتها؟

وإذا سلبتك الذّبابة حياتك بمرضٍ تنقله إليك فمن يستطيع أن يردّ لك تلك الحياة.

بل إنّها لو سلبتك ذرّة من النَّشا من طعامك فإنّ عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لايستطيعون استرداد هذه الذّرّة من أمعائها لأنّها تتحوّل فوراً الى سكّر بفعل الخمائر الهاضمة.

فما أضعف الطّالب والمطلوب.

ما أضعف عبقريّ الكيمياء. وما أهون الذّبابة، وما أتفه ذرّةً من النَّشا في عالمٍ هائلٍ بلا حدود. بل عوالم وأفلاك مترامية خلقها الخالق الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علما.

بهذه البساطة المعجزة الملغزة يتعرّض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان».

---

(١٢) ص ٢٧٩ د. مصطفى محمود. دار الشّروق. بيروت الطّبعة الثانية ١٩٧٠م

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

ماقدروا الله حق قدره: ما عظّم هؤلاء الّذين جعلوا الآلهة لله شريكاً في العبادة حقّ عظمته حين أشركوا به غيره فلم يخلصوا له العبادة ولاعرفوه حق معرفته(١).

إنّ هؤلاء المشركين الّذين أشركوا مع الله تعالى في العبادة الآلهة التي لاتخلق ذبابة واحدة، وإن يسلبها الذّباب شيئاً لاتستطيع استرجاعه، ماعظّموا الله تعالى حق تعظيمه، لأنّهم لم يعرفوه حقّ معرفته، فأشركوا معه تعالى الآلهة العاجزة. إنّ الله تعالى لقويّ قادرٌ على كل شيءٍ عزيزٌ لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. ويلاحظ أنّ التذييل هنا: ﴿إنّ الله لقويٌّ عزيز﴾ سبق أن جاء في الآية الكريمة الأربعين التي تدلّ على القدرة المطلقة للذات العليّة الّتي تنصر من ينصرها.

ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن النّاس: الله يختار من الملائكة رسلا كجبريل وميكائيل اللّذين كانا يرسلهما الى أنبيائه ومن شاء من عباده(٢).

ومن النّاس: ويختار من النّاس أيضاً رسلاً (٣).

يعلم مابين أيديهم وماخلفهم: أي ماقدّموا وماخلّفوا وما عملوا وماهم عاملون بعد (٤).

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤١ انظر معاني القرآن للفرّاء ٢ / ٢٣٠

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٢

(٣) أنظر تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٢ (٤) الجلالين

الله سبحانه وتعالى يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل عليهما السّلام اللّذين يرسلهما جلّ وعلا إلى أنبيائه ومن شاء من عباده، ويختار من النّاس رسلاً ابتداءً بنوح عليه السلام وانتهاءً بمحمّد صلى الله عليه وسلم. إنّ الله تعالى سميعٌ لأقوال خلقه، بصيرٌ بما يعملون وبمن يستحقّ أن ينعم عليه عزّ وجلّ بنعمة الرّسالة ، من الملائكة ومن البشر.

يعلم عزّ وجلّ ماقدّمه أولئك المصطفون الأخيار من أعمال، وما خلّفوه وراءهم من آثار، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. وإلى الله تعالى وحده لاشريك له ترجع الأمور في الآخرة فيجازي كلاًّ بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾

من المعروف أنّ الاسلام نطقٌ باللّسان، واعتقادٌ بالجَنان، وعملٌ بالأركان. والآية الكريمة تخاطب الّذين آمنوا بقلوبهم وأعلنوا إيمانهم بألسنتهم بأن يفعلوا مايعتقدون ويقولون، وبأن يقدّموا الدّليل العمليّ على إيمانهم. ولمّا كانت الصّلاة أهمّ أركان الإسلام الخمسة بعد الشّهادتين فإنّ الآية الكريمة تولى اهتمامها بهذا الرّكن. إنّ الآية الكريمة التي تنادي الّذين آمنوا تأمرهم بالرّكوع وبالسّجود جماعةً ومنفردين في صلاة الفرض والنّافلة. ومن البيّن أنّ الرّكوع والسّجود من أبرز هيئات المصلّى.

كما تأمر الآية الكريمة المؤمنين بعبادة ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه. وتدخل الصّلاة بركوعها وسجودها وأركانها وواجباتها وسننها في الأمر بالعبادة. ثمّ يكون الأمر بفعل الخير المطلق. والمعروف أنّ كلّ خيرٍ يقوم به المسلم وهو يريد به وجه ربّه الأعلى يدخل في المفهوم الواسع للعبادة في الإسلام.

ولمّا كان العبد إنّما يدخل الجنّة إذا تغمّده الله تعالى برحمته فتفضّل بقبول عمله الصّالح الّذي أراد به وجهه الكريم جلّ وعلا فإن الآية الكريمة في التّنبيه إلى وجوب عدم الاغترار والغفلة يجيء في نهايتها القول للّذين آمنوا: ﴿لعلّكم تفلحون﴾ إنّ من سمات المؤمنين الإشفاق ألاّ يتفضّل الله تعالى بقبول أعمالهم الصّالحة. وإنّ ثمّة شرطين ينبغي توافرهما كي يتقبّل الله تعالى الأعمال. الشرط الأوّل أن تكون صواباً بمقياس الإسلام، والشرط الآخر أن تكون خالصة لله تعالى وحده لاشريك له.

وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

هو اجتباكم: هو اختاركم لدينه واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله(١).

وما جعل عليكم في الدّين من حرج: وماجعل عليكم ربّكم في الدّين الّذي تعبّدكم به من ضيق لا مخرج لكم ممّا ابتليتم به فيه، بل وسّع عليكم فجعل التّوبة من بعض مخرجاً، والكفّارة من بعض، والقصاص من بعض، فلا ذنب يذنب المؤمن إلاّ وله منه في دين الإسلام مخرج(٢).

ملّة أبيكم إبراهيم: الزموا ملّة أبيكم إبراهيم(٣).

هو سمّاكم المسلمين من قبل: عن ابن عبّاس: الله سمّاكم(٤)

وفي هذا: وفي هذا القرآن(٥).

ليكون الرّسول شهيداً عليكم: ليكون محمّد رسول الله شهيداً عليكم يوم القيامة بأنّه قد بلّغكم ما أرسل به إليكم(٦).

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٢

(٢) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٢

(٣) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٣ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣١

(٤) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٤

(٥) تفسير الطّبري ١٧٧/ ١٤٤ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣١

(٦) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٤.

وتكونوا شهداء على النّاس: أن رسلهم قد بلّغتهم[1].

بعد الأمر بالصّلاة وعبادة الله تعالى وحده لاشريك له وفعل الخيرات في الآية الكريمة السّابقة تواصل الآية الكريمة التّالية الإرشاد بالأمر بالجهاد في سبيل الله تعالى حقّ الجهاد بالسّنان في حقّ الكافرين، وباللّسان في حقّ المنافقين، وبكلّ الوسائل الممكنة في الدّعوة الى الله تعالى بين المؤمنين وسواهم.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي اصطفانا نحن أمّة محمد بن عبدالله ﷺ، وأمرنا بأن نلزم ملّة أبينا إبراهيم أبي الأنبياء عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. لقد بعث الله تعالى محمّداً ﷺ بملّة ابراهيم عليه السّلام، وبالحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام، في الصّورة الأخيرة الكاملة لدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، ذلك الدّين الذي بعث الله تعالى به كلّ المرسلين، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام، وانتهاءً بمحمّد بن عبدالله ﷺ. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي سمّانا المسلمين من قبل نزول هذا الكتاب العزيز وإرسال محمّد بن عبدالله ﷺ، كما سمّانا المسلمين في هذا الكتاب العزيز الّذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

لقد أنزل الله تعالى الكتاب العزيز أشرف الكتب السّماوية، على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ ليكون الرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم، شهيداً علينا، نحن المسلمين، بأنّه عليه الصّلاة والسّلام، قد بلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، وكان لقومه النّاصح الأمين، ولنكون نحن المسلمين، شهداء على النّاس السّابقين، بأنّ رسلهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد بلّغوا الرّسالة وأدّوا الأمانة وكانوا لأقوامهم النّاصحين الأمينين. لقد تأهّل المسلمون لمرتبة الإدلاء بالشّهادة في حقّ الأمم السّابقة بما جاءهم من الوحي عن طريق خاتم النبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

وماهي المؤهّلات الّتي تتسلّح بها هذه الأمّة كي تصح منها الشّهادة وتُقبَلَ

---

(١) تفسير الطّبري ١٧/ ١٤٤

بإذن الله تعالى. أن تقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتعتصم بحبل الله تعالى وحده لاشريك له، وبتعاليم هذا الدّين كما جاءت في القرآن الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو مولى المؤمنين الّذين يتحلّون بتلك النعوت وناصرهم. فنعم المولى هو جلّ وعلا، ونعم النّاصر لهم على أعدائهم الظّاهرين والمستترين.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرّمة
صبيحة يوم الاثنين ٧/ ٥/ ١٤١٨هـ
الموافق ٨/ ٩/ ١٩٧٧م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنية البيانيّة
وعميد كلّية اللّغة العربيّة
جامعة أمّ القرى
بمكة المكرّمة

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدّمة		٩
أوّلاً: سورة الأنبياء		١١
بين يدي التّفسير		٢٣
التّفسير		٤٣
١ـ في هذا الكتاب العزيز شرفكم أيّها النّاس فآمنوا به وبالرّسول الكريم قبل حلول العذاب	١ - ١٥	٤٥
٢ـ الله تعالى خالق السّماوات والأرض، وكلّ من فيهما خلقه فاعبدوه.	١٦ - ٢٩	٥٥
٣ـ رغم آيات الله تعالى الكُثُر في السّماوات والأرض يصرّ الكافرون على كفرهم واستهزائهم والإقبال على الدّنيا والإدبار عن الآخرة.	٣٠ - ٤٧	٦٣
٤ـ يقصّ الله تعالى على محمّد ﷺ من أنباء الرّسل مايثبّت به فؤاده وأفئدة المؤمنين.	٤٨ - ٩١	٧٧
٥ـ ثواب الّذين يتّبعون الرسول الكريم عظيم، وعذاب الّذين يتولّون عنه أليم، وليس على الرّسول إلاّ البلاغ المبين.	٩٢ - ١١٢	١١٤
ثانياً: سورة الحج		١٢٩
بين يدي التّفسير		١٤٢
التّفسير		١٥٩

١ـ على النّاس جميعاً أن يتّقوا ربّهم ويؤمنوا بالبعث ويعملوا من أجله.	١ - ١٣	١٦٠
٢ـ للمؤمنين المتّقين جنّاتُ النّعيم، وللكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى عذابٌ أليم.	١٤ - ٢٥	١٧٧
٣ـ الأمر بالحجّ الى بيت الله تعالى الحرام والنّهي عن الشّرك.	٢٦ - ٣٧	١٩١
٤ـ الإذن بالقتال، والتّسلية للنّبي ﷺ والمؤمنين، وإنذار الكافرين، وتبشير المؤمنين.	٣٨ ـ ٥١	٢١٣
٥ـ ينسخ الله تعالى القادر على كلّ شيء مايلقى الشّيطان، ويثبت آياته البيّنات، ويثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.	٥٢ - ٦٦	٢٣٥
٦ـ الأمر بالدّعوة الى الله تعالى، وإنذار المعرضين عن القرآن الكريم عذاب النّار، وتقرير عجز الآلهة، وحثّ المسلمين على إخلاص العبادة لله تعالى.	٦٧ - ٧٨	٢٥١
فهرست الموضوعات		٢٦٧